مدام دى ستايل وموقفها من نابليون

من أهم نتائج الثورة الفرنسية وأبقى آثارها أنها أيقظت الوعى القومى ، ونبهت الشعور الوطنى ، وبدأت فى أوربا عهد الحركات القومية والتطلع إلى الحرية والمساواة والحكم النيابى ، ولم تؤثر هذه الاتجاهات الجديدة فى العلاقات السياسية بين الأمم المختلفة فحسب ، بل أثرت كذلك فى الصلات الثقافية ، والروابط الأدبية ، والتبادل الفكرى .

ولقد كانت الصلات الثقافية قبل عهد الثورة الفرنسية مجرد تبادل أفكار بين أفراد من بلاد مختلفة وأرضين نائية ، ولكنهم مع ذلك تجمعهم رابطة واحدة وينظمهم عقد الأدب ، وتؤلف بينهم جمهورية التفكير ، أما بعد الثورة فإن التلاقى الفكرى أصبح مقابلة بين آداب قومية مختلفة اللون متباينة المنزع ، وقوى الاعتقاد بأن الأدب والفلسفة وسائر مقومات الحياة الثقافية ليست من عمل الأفراد فى عزلتهم الفردية ، وإنما هى نتيجة لأحوال البيئة وملابسات العصر والتقاليد القومية ، وقد تأثر بهذه الفكرة كثيرون من مفكرى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر ، وكان للكاتبة الفرنسية القديرة الموهوبة مدام دى ستايل أثر كبير فى ترويج هذه الفكرة وإذاعتها والدفاع عنها بما أوتيت من بلاغة أداء وقوة بيان واجتراء على إعلان ما تعتقد أنه الحق والإصرار عليه .

واسم مدام دى ستايل هو آن لويزجرمين نكر وقد ولدت فى باريس سنة ١٧٦٦ ، وهى ابنة الوزير الاقتصادى المالى المعروف جاك نكر الذى اشتهر أمره فى أواخر عهد لويس السادس عشر ، وكان هذا الرجل معقد آمال الطبقة

المتوسطة فى فرنسا ، وقد حاول أن يصلح أحوال فرنسا المالية بعد فوات الأوان ، وتمكن الفساد ، وتأبيه على الإصلاح وجهود المصلحين .

وقد تزوجها إريك ما جناس بارون دى ستايل هولستاين لقوتها العقلية البارزة وما كان ينتظر أن ترثه من أبيها الثرى فإنها لم تكن موفورة الحظ من الجمال ، وقد رقى زوجها إلى منصب وزير السويد المفوض ، وقد أرضى ذلك حبها للظهور والاستعلاء ، ونالت المكانة التى كانت تطمح إليها ، وقد كانت مدام دى ستايل على ذكائها المتوقد وعمق تفكيرها وغزارة علمها امرأة مترامية الآمال ، حريصة على الشهرة ، محبة للظهور ، تريد أن تسترعى الأنظار ، وتخلب العقول ، وتشغل الأفكار ، وتحدث حدثاً ، وتترك فى الدنيا دويًّا ، وتود أن تصبح فى طليعة القادة والزعماء ، ولا بأس عندها من المغامرة والمخاطرة فى هذا السبيل ، وتحدى الطغاة والجبابرة المستبدين ، ولو كان على رأسهم نابليون العظيم .

وقد بدأت حياتها الأدبية برسالة عن روسو تناولت فيها كتاباته وأخلاقه ، وقد طوفت فى الآفاق ، وزارت معظم البلاد الأوربية ، وألمت بأحوالها وعرفت نظمها والكثير من دخائلها ، وكانت محبة للاستطلاع باقعة سئولا ، قوية الملاحظة ، سريعة الفهم والإدراك .

وحبها الشديد للحرية ومطامعها السياسية ، وصراحتها فى إبداء آرائها جعلت نابليون يضطهدها ويقاومها ويتابعها بنقمته أينما حلت .

وقد كان نابليون بوجه عام سيئ الرأى فى النساء ، ولعل المرأة الوحيدة التى حازت إعجابه ، وظفرت بتقديره هى والدته ليتيزيا ، ولم يكن من رأيه مساواة المرأة بالرجل ، وكان يؤثر استعباد المرأة وخضوعها للرجل . وقد حاولت المرأة

أن تطالب بحقوقها حينما اجتاحت الثورة فرنسا ، ولكن بعض المؤرخين يرون[١] أن النساء أظهرن حينذاك حماسة واندفاعاً أكثر مما أظهرن من حكمة وتبصر ، وأن هذه الحماسة المسرفة كانت لها آثارها السيئة . وقد أحدث ذلك حركة رجعية ترمى إلى الحد من حرية المرأة ، وكان لنابليون شيء من العذر فى محاولته إيقاف الحركة النسائية إبقاء على النظام وصيانة للأمن ، ومن مأثور أقواله «لن يكون للنساء تأثير فى بلاطى ، وقد يضمرن لى الكراهة ، ولكننى سأظفر بالهدوء والطمأنينة» وقد لوحظ أن هذه المعاملة زادت النساء تعلقاً به وإكباراً له . ولم يشذ عن ذلك سوى بعض النساء القويات الشخصية ومنهن مدام دى ستايل .

وقد لاحظت مدام دى ستايل أن نابليون كان يحترم الخصم الذى يواجهه ويثبت له ويقارعه الحجة بالحجة ، وقد كانت حاضرة أمره فى سنة ١٧٩٨ حينما تراجع وتخاذل تلقاء سيدة سريعة البديهة مفحمة الجواب ، فقد تقدم نابليون من سيدة فى الصالون أثار جمالها وذكاؤها الإعجاب ، وقال لها فى صراحة نادرة «أيتها السيدة إنى لا أحب النساء اللواتى يخضن فى السياسة» فأجابته قائلة «إنك على حق أيها القائد ، ولكن فى البلاد التى تقطع بها رؤوسهن من الطبيعى أن يحاولن تعرف أسباب ذلك ! » فلم يحر نابليون جواباً .

ومن رأى مدام دى ستايل أن نابليون كان رجلا تسكنه المقاومة الحقة ، وأن الذين صبروا لطغيانه واحتملوه هم شركاؤه فى الذنب ، وقد كتبت فى مذكراتها تقول » [٢] لا يسعنى إلا أن أفكر دائماً فى أن بونابرت لو كان لقى بين

---

(١) راجع صفحة ٢٤ من كتاب «شخصية نابليون» للكاتب المؤرخ هولاندروز .

The Personality of Napoleon

(٢) راجع صفحة ١٦ من مذكرات مدام دى ستايل .

Memoirs of Madame de Stael

خصومه رجلا مستقيماً على خلق الأوقفه ذلك عند حده ، وسر براعته قدرته على إرهاب الضعفاء والاستفادة ممن لا خلاق لهم ، وقد كان حينما يلقى الشرف وجهاً لوجه تبطل حيله كما تقصى الأرواح الشريرة علامة الصليب» وهى تذكرنى فى ذلك بقول الشاعر خليل مطران فى قصيدته «مقتل بزرجمهر» منددا بكسرى :

هم حكموه فاستبد تحكماً وهم أرادوا أن يصول فصالاً

والواقع أن رأى مدام دى ستايل ينطوى على حكمة بالغة وحق عميق ، فإن المقاومة الثابتة الصابرة تكشف أحسن صفات الرجل القوى الممتاز ، أما الاستسلام والخضوع فإنهما يغريانه بالجموح والإمعان فى الطغيان .

وقد حاولت مدام دى ستايل فى بادئ الأمر أن تستميل نابليون وتستولى عليه بعد انتصاراته فى إيطاليا ولكنها لم توفق فى ذلك ، لأن نابليون بطبيعته كان لا يعبأ بالنساء المفكرات ، وبالرغم من ذلك ظلت معجبة به حتى بعد عودته من مصر ، ولكنها وجدت أنها كانت مخدوعة فيه ، ولاحظت أن طبعه الأصيل قد أخذ يتكشف ويظهر ، فحالما توطد مركزه ، وامتد ظله ، وسالمته الليالى ، طغى وتجبر ، وتعالى وتكبر ، وأصبح لا يطيق المناقشة ، ولا يحتمل أدنى مخالفة أو معارضة ، فحز ذلك فى نفسها ، وأثارها ، فبسطت فيه لسانها ، وشنعت عليه ، وسمعت به ، فخاصمها نابليون ، ونصب لحربها ولم تكف هى عن مقاومته بلسانها الطويل ، وقلمها البليغ ، وحجتها الناهضة ، وكانت معروفة المكانة ذائعة الصيت قبل مخاصمتها لنابليون ، ولكن المعركة التى نشبت بينها وبين نابليون جعلتها من الشخصيات الأوربية العظيمة البارزة التى يشار إليها بالبنان ، ويتردد ذكرها على كل لسان .

وقد حاولت فى كتابها عن إيطاليا المعروف باسم كورين وفى كتابها عن

ألمانيا أن تنقل رسالة فرنسا الحرة إلى إيطاليا وألمانيا ، وأن تستنهض همم الإيطاليين ، وتثير عزائم الألمان ، وحاولت أن تسترعى نظر هاتين الأمتين إلى الحياة السياسية ، وطلب الحرية الفردية ، والوحدة القومية ، وحاولت من جانب آخر أن تعرف الفرنسيين بالأدب الألمانى وفلسفة كانت وفخت وشعر شلر وجيتى ، وقد قدمت للفرنسيين صورة حية مشرقة للأدب الألمانى ، قربته إلى نفوسهم ، وأغرتهم بالاطلاع عليه ، والإعجاب به ، وإكباره وإجلاله ، والتأثر به وقد ظل لهذه الصورة البديعة سحرها الأخاذ حتى كشفت حرب السبعين عما بها من خطأ ومجافاة للواقع ، فألمانيا الحالمة الوادعة المثالية الشاعرة التى شاهدتها مدام دى ستايل عن قرب كانت – منذ بدأت مدام دى ستايل تصويرها – قد أخذت تتحول رويداً رويداً إلى ألمانيا الموغلة فى المادية المعتزة بقوتها النزاعة إلى الكفاح والعدوان .

ولم تتعرض مدام دى ستايل فى كتابها لمشكلات ألمانيا السياسية ، ولكن غرضها كان واضحا ، فقد كانت ترمى إلى إيقاظ الشعور القومى الألمانى ، وتحبذ توحيد الجهود ، وتوحيد الجهود لابد أن يتجه إلى مقاومة فرنسا وتحدى مطامع نابليون ، ولذا لا نعجب إذا علمنا أن الرقابة التى فرضها نابليون على الآثار الأدبية لم تسمح بظهور الكتاب فى فرنسا سنة ١٨١٠ ؛ فقد كتب لها الوزير المشرف على الرقابة رسالة مؤدبة رقيقة يقول لها فى خلالها « إن الفرنسيين لم يصل بهم الحال إلى حد أن يلتمسوا المثل والنماذج بين الأقوام الذين تعجب بهم » وصارحها بأن كتابها الأخير – عن ألمانيا – ليس كتاباً فرنسياً .

ولما تم طبع الكتاب فى سنة ١٨١٣ قبل معركة ليبزج بأيام قلائل نشرت الخطاب فى مقدمة الكتاب . ودافعت عن نظريتها فى القومية ، وأبانت أن اختلاف اللغات والحدود الطبيعية وذكريات التاريخ المشتركة وما إلى ذلك من

العوامل تساعد على أن توجد الفرديات العظيمة التى تسمى «أمما» وذهبت إلى أن إخضاع أمة لأمة أخرى من الأمم أمر ضد الطبيعة ، ودافعت عن ألمانيا قائلة «من يفكر اليوم فى إمكان إخضاع إسبانيا أو إنجلترا أو فرنسا ؟ ولماذا تكون الحال مختلفة فى ألمانيا ؟» .

وقد ظلت مدام دى ستايل وفية لفكرة القوميات الحرة ، مؤمنة بإمكان تعاون الأمم الحرة فى سبيل الحرية النيابية الدستورية على النمط الإنجليزى . فهى كانت تؤمن بالاستقلال الثقافى والأدبى . وتؤمن فى الوقت نفسه بالتعاون الأممى .

وكانت لا تستريح لهذه الوحدة المتكلفة المصطنعة التى حاول نابليون أن يفرضها فرضاً على الدول الأوربية .

ولما زارت روسيا فى سنة ١٨١٢ أعجبت بالملابس القومية الروسية ولم تر أن يتركها الروسيون ويلبسوا الزى الأوربى ، ولم ترض أن يعم القانون النابليونى الأمم المختلفة ، لأنها كانت ترى أن حرية الأمم تستلزم أن تحكم كل أمة نفسها بالأسلوب الذى يلائمها ، ويطابق أحوالها الخاصة وعاداتها وتقاليدها ، وعندها أن الأمم الحرة يجب عليها أن تجنح للسلم وإلا فقدت حريتها واستقلالها ، والحرية تقوى الأمم وتشد بنيانها ، ولكن الحرية التى تسند الأمم وتشد منها هى الحرية المقترنة بالعدالة والإنصاف .

وقد استطاع الفرنسيون فى أول عهد الثورة أن يثبتوا لأوربا بأجمعها فى حرب الاستقلال ، وكانوا أقوى من أوربا جميعها بقوة الرأى العام ، ومع حضها فرنسا على الاستمساك بأهداب السلم وتحذيرها لها من الانتشار بخمر النصر والغلبة فإنها كانت تقر الحرب الدفاعية ، وأشادت فى كتابها عن ألمانيا بفضل الحماسة وقدرتها على أن تسمو بالناس فوق المصالح الخاصة ، واسترعت النظر

إلى عظمة التضحية فى سبيل الأغراض النبيلة ، وذكرت للإيطاليين والألمان المغلوبين على أمرهم أن المستقبل لهم إذا صدقت وطنيتهم وصحت عزيمتهم .

ولكن الاستقلال لم يكن له قيمة فى رأى مدام دى ستايل إلا إذا كان استقلال أفراد أحرار قد احتاطوا لأنفسهم من خطر الطغيان الداخلى ومحاولة سحق الحرية الشخصية والاستقلال الفردى .

وأغرت الانتصارت المتوالية نابليون باحتقار ثقافات الأمم المختلفة ، ووسعت شقة الخلاف بينه وبين أنجلترا ، وكانت مدام دى استايل لا ترى تغليب ثقافة على ثقافة أخرى ، وكان إعجابها بنظام الحكم فى إنجلترا إعجاباً شديداً ، وقد زاد ذلك ما بينها وبين نابليون فساداً ، وعمق الهاوية التى تفصلها .

وقد ظلت إلى النهاية وهى تحمل علم المعارضة لنابليون برغم الصواعق التى كان يرسلها عليها ، وقد زارت فى سنة ١٨١٣ الكثيرين من الوزراء والساسة الأعلياء ، وحرضتهم على مقاومة نابليون ، وكانت تجتهد فى أن تفرق بين نابليون وبين فرنسا ، فمحاولة إسقاط نابليون كانت فى نظرها مسألة أخرى مختلفة كل الاختلاف عن محاربة فرنسا ، بل إن مصلحة فرنسا الحقة تقتضى إبعاد نابليون وإقصاءه عن عرش فرنسا ، وكانت أكثر إخلاصا لمبادئ الثورة من أن تميل إلى ناحية البوربون ، كما فعل الكاتب الفرنسى الكبير شاتوبريان ، وأخطر جريمة اقترفها نابليون فى نظرها هى القضاء على الحرية الجمهورية فى فرنسا ، وظل مثلها الأعلى هو الحرية المستنيرة المعتدلة المعقولة أو الحرية التى يتمثلها الكتاب والفلاسفة والحكماء .

وفى ضوء هذه الأفكار كتبت عن الثورة الفرنسية ، وذكرت فيه فكرتها عن نابليون وعهده مفصلة معززة بذكرياتها المرة وتجاربها القاسية ونقداتها اللاذعة النفاذة القوية ، وملخص رأيها فى نابليون أنه كان جنديا قبل كل

شيء ، فهو لا يحفل بمبادئ الحرب السياسية ، وقد بدأ بالقضاء على المثالية الجمهورية فى الجيش ، ثم استعان بالجيش للقضاء على هذه المثالية فى الدولة ، وهو أنموذج مستوفى الشرائط للأنانى المجرد من العطف الإنسانى والذى يرى الناس آلات محتقرة وقطعا فى رقعة الشطرنج ، وهو غريب أجنبى بين الفرنسيين ، لا وطن له ولا إيمان ، وهو لا يسعى إلا لمجده الشخصى وعظمته الفردية ، وهو المكيافلى الذى يعد بالسلم ويعمل سراً على إثارة الحرب ، وتهيئة أسبابها ، وإعداد معداتها ، ومادامت مقاليد السلطان فى يديه فهو لا يكف عن الاعتداء وإثارة الحروب ، وليس للدين ولا للأدب من قيمة فى رأيه إلا بمقدار ما يساعدانه على إعلاء سلطانه وبسط نفوذه ، فهو الطاغية بمعنى الكلمة .

ويرى المؤرخ البلجيكى المعاصر بيترجيل أستاذ التاريخ الحديث فى جامعة اترخت فى كتابه عن «نابليون ما له وما عليه»[1] أن الكثيرين من المؤرخين الذين نقدوا أعمال نابليون رددوا ما قالته مدام دى ستايل وأعادوه بتفصيلات أوفى وملاحظات أدق واشمل .

وقليل من النساء أو الرجال من استطاع الثبات للطغاة والجبابرة مثل مدام دى ستايل ، ولا نزاع فى أنها قد ضربت للإنسانية مثلاً عالياً فى الدفاع عن الحرية والثبات على المبدأ فى مراجعة الطغيان والاستبداد ومواجهتهما .

---

(١) راجع ماكتبه عن مدام دى ستايل من صفحة ١٩ إلى صفحة ٢٢ فى كتابه «نابليون ما له وما عليه . Napoleon For And Against.